بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الكتاب الرابع في موسوعتنا ،وهو أول الأعمال المترجمة ،ترجمته عن الانكليزية ،وعنوان الكتاب الأصلي« السعي وراء الفترة الألفية السعيدة »ومؤلفه هو الاستاذ نورمان كوهن ،الذي ولد في لندن عام ١٩١٥ ،وشهر كاستاذ جامعي متخصص حيث درس في أكسفورد ثم في مختلف جامعات انكلترا وسكوتلندا وايرلاندا ،وعندما أعاد طباعة كتابه هذا للمرة الثالثة عام ١٩٦٩ كان استاذا زميلا في جامعة ساسكس في انكلترا ،وله عدة مؤلفات ، كان من اشهرها كتابنا الذي نقدمه الآن وكتاب آخر عن التآمر اليهودي العالمي حسبما ورد في كتاب« بروتوكولات حكماء صهيون » ٠

لقد عدلت بعض الشيء عنوان الكتاب الأصلي ومنحته عنوانا جديدا يتماشى مع القارىء العربي ،استخرجته من محتويات الكتاب ، وكما سلف بي واشرت من قبل إن هذا الكتاب يأتي كمتمم مفيد جدا لمحتويات كتاب المدخل بأجزائه ، وفوائد هذا الكتاب تتخطى موضوع الحروب الصليبية لتفيد الباحث في تاريخ الاسلام بشكل عام ،واكثر من هذا إنها تفيد في فهم مايعرف الآن باسم الحركات الأصولية في مسيحية القارة الأوربية ،هذه الحركات التي أسهمت بشكل فعال في تدمير النظام الماركسي في الاتحاد السوفييتي وفي أوربا الشرقية ،ولها تاثيرها النافذ على مختلف جوانب الحياة في الغرب الأوربي والشرق وفي الولايات المتحدة ،وهذه مسائل يحتاج القارىء العربي الى التبصر بها والتمعن ٠

لقد بذلت كل جهد ممكن في المحافظة على روح الكتاب اثناء تاليفه وذللت معظم العقبات التي تعلقت باستخدام الاصطلاحات بالعربية ،وفقط سميت الذين كانوا يضربون انفسهم بالسياط وغيرها من الوسائل« باللطامين » على اساس ان اللطم في ايامنا لايعتمد فقط على الاكف بل هناك السياط وحتى السلاسل المعدنية ووسائل اخرى ،و باستثناء التحرج امام هذا الاصطلاح ارى ان ماتبقى لالبس به البته ،والله الموفق الى السداد ٠

من الله تعالى ارجو العون والتوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين ٠

دمشق ٢٠ شعبان ١٤١٣ ٠ ١٢ شباط ١٩٩٣

تنويـــــــه

اعيد اخراج الصور بإذن من المتحـف البـريطاني والمكتبـة الملكية البلجيكية ومعهـد كورتـولد للفنون والسـيدة ج . ب. سومز

وابدي امتناني للأسستاذ المتوفى غ. ر. أوسـت ولمطبعـة جامعة كمبردج للسماح لي بـالاقتباس مـن تـرجمه جـون برومياردفي

« الأدب والوعظ في انكلترا العصور الوسطى »

تمهيد لهذه الطبعة

لقد اتاح لي نشر الطبعة الثالثة من السعي وراء الفترة الألفية السعيدة الفرصة للقيام بمراجعة شاملة ،وقد مضى نحو ربع قرن تقريبا منذ أن بدأت العمل في هذا الكتاب وثلاثة عشر عاما منذ ان انتهيت منه وسيكون تعليقا متواضعا على التقدم العلمي او على مرونتي العقلية او كليهما القول بأني لم أجد شيئا فيه الآن يتطلب التعديل او التوضيح ،ففي الواقع إني وجدت الكثير ،إن في الطبعة الجديدة ثلاثة عشر فصلا بدلا من إثني عشر ومقدمة وخاتمة مختلفتان وقد تم تغيير فصلين بصورة جوهرية مع عدد لايحصى من التغييرات التي جرت في مواضع مختلفة من الكتاب ، وقد يحب بعض القراء أن يعرف بتعابير عامة حجم ذلك ،إن التغييرات يمكن تلخيصها كما يلي

في المقام الأول إن نتائج البحوث الجديدة قد أخذت في الحسبان ٠

وما زال كتاب « السعي وراء الفترة الألفية السعيدة »الكتاب الوحيد في موضوعه أعني حول تقاليد الألفيين الثوريين والفوضوية الصوفية كما تطورت في أوربا الغربية بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر ٠ ولكن كانت هناك اسهامات جديدة كثيرة تتراوح بين المو اد القصيرة والكتب الطويلة حول الظواهر الفردية ،وحلقات تلك القصه ،وبشكل خاص صورة تلك الديانة الغامضة ،أعني الروح الحرة ،التي ملأ فراغها جهود الأستاذ روماناغارنيري Romana Guarnieri من روما ،وقد تضمنت هذه الجهود الكبيرة تعريف وتحقيق كتاب« مرآة الأرواح البسيطة »لمرغريت بوريت Marguerite porete ،وهو نص أساسي للروح الحره يتمم بشكل يثير الاعجاب نصوص رانتر Ranter المتأخرة عنها كثيرا وبشكل ملحقا للكتاب الحالي ٠

وقد انتج الأستاذ غارنيري أيضا طريقه التفهم والمعالجة الأقرب التي لم يحدث مثلها حتى الآن لتشكل تاريخا كاملا للديانة في ايطاليا كما في شمال ووسط اوروبا ومعرفتنا بالثابوريث البكارتي Pakarti والاداميت Adamites في بوهيميا قد تعمقت بصورة مماثلة ليس فقط بسبب التدفق المستمر للدراسات الماركسية التي انبثقت من تشيكوسلوفاكيا ،بل ايضا بالسلسلة المؤثرة والمنورة من المواد التي اضافها العالم الأمريكي الأستاذ هوارد كمنسكي Houard Kaminsky ودمجت الاضافات الكبيرة للمعرفة الى جانب كثير من المعارف الصغيرة في الفصول ذات العلاقة من هذا الكتاب •

وحيث ان السعي وراء الفترة الألفية السعيدة لم يقصد به ابدا أن يكون تاريخا عاما للانشقاق الديني أو الهرطقة في العصور الوسطى ،فإن معظم البحوث الجديدة في هذا المجال ـ وهي كثيرة ـ تترك المجادلة فيها دون مساس ،ومع ذلك فهي تجربة مثيرة للتفكير ان يقرأ مثل هذا المجال الواسع من الكتب الموثوقة مثل« الانشقاق والاصلاح في العصور الوسطى » الذي وضعه الأستاذ جفري روسل Jeffreyrussell « والهرطقة في اواخر العصور الوسطى »الذي وضعه الأستاذ غوردون ليف Gordonleff و« الاصلاح الجذري » الذي وضعه الأستاذ جورج وليمز وما من واحد من هذه الكتب لايتراكب مع السعي وراء الفترة الألفية السعيدة في أكثر من فصلين ،ولكنها فيما بينها تقدم تاريخا فخما للانشقاق يمتد من القرن الثامن الى السادس عشر ، وبالنظر اليها في هذا المحيط الأوسع فإن الطوائف والحركات الموصوفة في هذا المجلد تبدو بوضوح أكثر كحركات استثنائية وبالغة التطرف في تاريخ الانشقاق الديني ،وهي تشكل الجناح المفرط في فوضويته ، وتوضح هذه المقدمة غرابتها في حين أن الفصل الجديد(٢) يظهر كيف انها تتواءم مع الصورة الأكبر •

وكان التركيب الاجتماعي لهذه الطوائف والحركات والمحيط

الاجتماعي الذي عملت فيه قد جـرى تبيانه بشـكل واف في الطبعـة الأولى ،وثبت انه لاضرورة لاجراء أي تغيير في هذا المجال ٠ وربما يتسنى للمؤرخين الاقتصاديين بالبحث المفصـل في الحـالات الفردية ان يسلطوا ضوءا أكـثر ،ولكن لايتوقع بـالتأكيد شيء مـن التبادل الجاري للتعميم العقـائدي بين المؤرخين الماركسـيين وغير الماركسيين للهرطقة ٠

فلا شيء مثلا يمكن أن يكون أكثر عقما من المناقشة بين مؤرخين معينين في غرب وشرق المانيا حول ما إذا كانت الهرطقة يمـكن اولا يمكن أن تفسر على أنها احتجاج من المحـرومين مـن المزايا ، لأن المتقدمين على مايبدو كانوا عاجزين عن تخيل كيف يمـكن ان يأتـي الانشقاق من الطبقات التي تتمتع بالمزايا ، وافضل وقاية مـن مثـل هذا الافراط في التبسيط هـو بعض المعـرفة بعلم اجتمـاع الدين ، وبهذه التقـوية لايحتمـل أن يتخيل المرء أن كل هـرطقة العصـور الوسطى كانت من نوع واحد تعـكس النوع نفسـه مـن عدم الرضى وتروق للقطاعات نفسها من المجتمع ٠

وإلى المدى الذي يتعلق بـالثوريين الألفيين فإن أهمية مضـمونها الاجتماعي يظهر في فصل بعد آخر في هـذا الكتـاب ،ولكني أيضـا حاولت تلخيصها بأوجز ما يمكن في الخاتمة ، والخـاتمة في الواقـع هي الجزء من الكتاب الذي جـذب أغلب الاهتمـام بين المجمـوع ، وخاصة أن كثرة التعليق الايجابي والسلبي قد أثارها الايحاء بـأن القصة الواردة في هذا الكتاب قد يكون لها بعض العـلاقة بـالهيجان الثوري في فرنسا ، وقد نوقشت هذه الحجـه مـطولا ليس فقـط في النظرة العامة والمواد ،بل أيضا وبشكل أكثـر افـادة في المناقشـات العفوية في الجامعات البريطانية وفي القارتين الأوربية والأمـريكية ، حيث أني مازلت مقتنعا بأن الحجة صالحة ، فإني اعتقد أنها تطلبت توضيحا أكثر ايجازا وإيضـاحا ، وقـد حـاولت ذلك في الخـاتمة الجديدة ٠

وأخيرا إن المصادر والمراجع القديمة التي كانت تاريخية محضة قـد

روجعت لتشمل الأعمال التاريخية التي ظهرت منذ تمت كتابة النسخة الأصلية من الكتاب ،وهي معلمة بعلامة نجمية ،ولكن السعي وراء الفترة الالفية السعيدة هو ملك للدراسة المقارنة للفترة الالفية بالدرجة نفسها على الاقل التي لدراسة تاريخ العصور الوسطى ، وفي ذلك المجال ايضا إن تقدما كبيرا جدا قد حدث في السنوات الأخيرة وقد اردفت ثبت المراجع والمصادر بنخبة من أسماء الكتب الجديدة والآراء ،معظمها يتعلق بمعتقدات الجنس البشري وعاداته وبالنواحي الاجتماعية ، وكثير من هذه في ذاتها ، تحوي مصادر أكثر تمكن القارىء المهتم من الاستكشاف الى مدى ابعد في هذا الحقل الصعب ، وذي الأهمية الحيوية مع ذلك ٠

جامعة سسكس،ن ٠ ك

شباط ١٩٦٩

تقديم

مجال هذا الكتاب

لقد كان المعنى الأصلي « للألفية » ضيقا ودقيقا ، وكان للمسيحية دائما إيمان بالأخرويات (البعث والحساب)بمعنى المذهب المتعلق (بالأزمنة الأخيرة) أو (الأيام الأخيرة)أو (الحالة الأخيرة للعالم) وكانت الألفية المسيحية ببساطة امرا يختلف عن الايمان المسيحي بالأخرويات وهي تشير الى الاعتقاد الذي يحمله بعض المسيحيين حول سلطة سفر رؤيا يوحنا(٢٠ - ٤-٦) انه بعد المجيء الثاني للمسيح سيقيم مملكه مسيحية على الأرض وسيحكمها لمدة الف عام قبل الحساب ، وطبقا لسفر رؤيا يوحنا سيكون مواطنوا هذه المملكة من شهداء المسيحية الذين سيبعثون لهذه الغاية قبل الف سنة من البعث العام للموتى ، ولكن المسيحيين القدماء فسروا بالفعل هذا الجزء من النبوءة بمعنى متحرر أكثر منه حرفي ،ساووا فيه بين الشهداء والمؤمنين الذين يعانون - بمعنى أنفسهم - وتوقعوا المجيء الثاني في حياتهم ، وفي السنوات الأخيرة اصبح شائعا بين علماء أعراف وعادات ومعتقدات الانسان ،وعلماء الاجتماع وإلى حد ما بين المؤرخين أيضا استعمال الألفية بمعنى أكثر تحررا ، واصبحت الكلمة في الواقع ببساطة عنوانا موائما لنمط معين من الخلاص وهذه هي الطريقة التي ستستعمل بها في هذا الكتاب .

وتصور طوائف أو حركات الألفية دائما الخلاص بـ :

أ - جماعي : بمعنى أنه يستمتع به المؤمنون بشكل جماعي .

ب - أرضي : بمعنى أنه سيتحقق على هذه الأرض وليس في اي سماء عالمية أخرى .

ج - وشيك : بمعنى أنه سيأتي سريعا وفجأة .

د ـ جملة : بمعنى أنه يحـول كلية الحياة على الأرض حتـى أن الشريعة الجديدة لن تكون مجرد تحسين للحاضربل الكمال نفسه •
هـ ـ معجزا : بمعنى أنه سـينجز بعـوامل خـارقة للطبيعـة أو بمساعدتها •

وحتى ضمن هذه الحدود هناك بالطبع مجـال لتنوع غير محـدود (ص ١٤) وهناك طرائق ممكنة لاحصر لهـا لتخيل الفتـرة الألفية والطريق إليها • واختلفت الطوائف والحركات الألفية في المواقف من العدوانية الأكثر عنفا الى الأخف سلمية ، ومن الروحانية الأكثر رقة الى المادية الدنيوية الراسخة ، وقد اختلفت أيضـا بـدرجة كبيرة في التركيب الاجتماعي والوظيفة الاجتماعية •

وكان هناك بالتأكيد تنوع كبير بين الطوائف الألفية والحركات في اوربا العصور الوسطى ففـي أحـد الأطـراف كان هناك مـا يدعى « الروحانيون الفرنسيسكان » الذين ازدهـروا في القـرن الثـالث عشر ، وقد جاء هؤلاء الزساك الزاهدون الأقوياء بشكل رئيس مـن خليط من العائلات النبيلة والمشتغلة بالتجارة التي شـكلت الطبقـة المهيمنة في المدن الايطالية ، وكان العديد منهـا يتخلى عن ثـرواته ليصبح افقر من اي شحاذ ، وفي تخيلاتهم كانت الفترة الألفية تعني عصرا للروح حيث يتوطد الجنس البشري كله في الصـلاة ،والتـأمل الصوفي والفقر الارادي •

وفي الطرف الأخر كانت الطـوائف الألفية المختلفـة والحـركات التي تطورت بين الفقراء الذين لاأصل لهـم في المدن والريف ، وكان فقر هؤلاء الناس اي شيء إلا أن نقول تطوعيا ، وكان نصـيبهم عدم الأمن الشديد القاسي ، وكانت الفيتهم عنيفـة فـوضوية ، وفي بعض الأحيان ثورية فعلا.

ويعالج هذا الكتاب الالفية التي ازدهرت بين الفقـراء الذين بـلا جذور في اوربا الغربية فيما بين القرن الحادي عشر والقرن السادس عشر ، والظروف التي شـجعت عليهـا ، ولكن إذا كان هـذا هـو

الموضوع الرئيس فهو ليس الوحيد ، لأن الفقراء لم يوجدوا عقائدهم الألفية الخاصة وإنما تلقوها ممن كانوا أنبياء أو مخلصين ،وهؤلاء الناس كان العديد منهم أعضاء سالفين في الكهنوت الأدنى ، وبدورهم أخذوا أفكارهم من أكثر المصادر تنوعا ، وكانت بعض التخيلات الألفية موروثة من اليهود والمسيحيين الأوائل ، والأخرى من راعي دير رهبان القرن الثاني عشر يواكيم أوف فيور Joaachim of Fior ، وكان بعضها ثانية متصلا بالبدع الباطنية الموروثة المعروفة بأخوة الروح الحرة ، وسيفحص هذا الكتاب كلا من كيفية نشوء الهياكل الأساسية لهذه المعتقدات الألفية المختلفة وكيف تبدلت خلال انتقالها الى الفقراء ٠

إن شعور القوة في عالم الألفيين وعالم القلق الاجتماعي إذن لم يتصادف بل تراكب ، وكثيرا ما حدث أن قطاعات معينة من الفقراء كانت في قبضة بعض « أنبياء »الألفية ، وعليه فان الرغبة العادية لدى الفقراء لتحسين الأحوال المادية لمعيشتهم أصبحت متمازجة مع متخيلات عالم تعاد ولادته في البراءة ، من خلال رؤيا لذبحة ملحمة أخيرة ، وكانت الخيالات الشديدة تذسب وتربط بصور مختلفة باليهود أو الأغنياء الذين يبادون ، وبعدها سيقيم القديسون ــ أعني الفقراء ذوي العلاقة ــ مملكتهم ، وهي عالم بلا معاناة أو خطيئة(ص ١٥)٠

وبفعل الالهام بمثل هذه التخيلات يختلف كثير من الناس الفقراء الذين يوظفون في المشروعات تماما عن الثائرين المعتادين من الفلاحين والحرفيين بأهدافهم المحلية المحدودة ، وستحاول خاتمة هذا الكتاب توضيح خصائص هذه الحركات الألفية لفقراء العصور الوسطى ، وسوف توحي أيضا بأنها في نواح معينة كانت نواة منذرة ببعض الحركات الثورية الكبيرة في القرن الحالي ٠

ولاتوجد دراسة أخرى شاملة لهذه الحركات التي تميزت بها القرون الوسطى ، هذا ولقيت الطوائف الدينية الأكثر تزمتا التي ظهرت واختفت عبر العصور الوسطى في الواقع اهتماما كبيرا ،

ولكن اهتماما أقل قد أعطي لقصة كيف انه حدث مـرات ومـرات في حالات سوء التوجيه الجماهيري والقلق أن المعتقدات التقليدية حول عصر ذهبي منتظر أو مملكة للخلاص كانت تخدم كوسائل للطموحات الاجتماعية والخصـومات ، ومـع عدم وجـود نقص في الدراسـات الرائعة التي تعالج حلقات فـردية أو نواح ، بقيت القصـة ككل غير محكية ويهدف الكتاب الحالي عند هذا الحد الى ملء الفراغ :

ولفتح هذا المجال الذي لم يكتشف بدرجة كبيرة لزم تمشيط مئات عديدة مـن المصـادر الأصـلية في اللاتينية واليونانية والفـرنسية القديمة ، فرنسية القرن السادس عشر والمانية العصـور الوسـطى والقرن السادس عشر العـالية والدنيا منهـا واسـتغرق البحـث والكتابة إجمالا نحو عشر سنوات ، وبسبب ذلك فإنها بـدت طـويلة بدرجة كافية لأن أقرر على مضض أن أحد مـن التحـري في شـمال ووسط أوربا لا لأن عالم البحر المتوسط في العصور الوسـطى ليس لديه مشاهد باهرة بصورة مماثلة أو مساوية لتقـديمها ، ولكن لأنه بدا لي ان البحث الأكثر شمولا جغرافيا أقل أهمية مما ينبغي بـذله من جهد ودقة يمكن أن أقوم بها بالنسبة للمنطقة المغطاة .

وقد توفرت المادة الخام من المصادر المعاصرة الكثيرة التنوع : حوليات ،تقـارير ،تحقيق لمحققين ،وإدانات أطلقهـا البـابوات والأسـاقفة والمجـامع والأجهـزة الدينية ، والنشرات الهجـومية ، والرسائل وحتى الأشعار الغنائية ، ومعظم هذه المواد كان يصدرها رجال الدين الذين كانوا معادين للمعتقدات والحركات التـي تـولوا وصفها ، ولم يكن سهلا دائما معـرفة الاضـافات والتحـريف غير المقصود أو التشويه المقصود ، ولكن لحسن الحظ ان الجانب الآخر أيضا انتج نصوصا أدبية رئيسه ، نجـا كثير منهـا مـن الجهـود المتفرقة للسلطات المدنية والكنسية لتدميرها ، وعليه كان من الممكن مراجعة المصادر الأكليركية ليس فقط بمقابلتها ببعضها بعضا ، بل بمقابلتها أيضا مع البيانات المكتوبة لعدد ذي شأن من متنبيء الفترة الألفية(ص ١٦) والبيان المقدم هنا هو حصيلة عملية طويلة لجمع

ومقارنة وتقويم وإعادة تقدير حشد كبير من الأدلة ، وإذا كان بشكل رئيس بيانا غير متردد ، بسبب أن كل الشكوك الكبيرة تقريبا ، والأسئلة التي أثيرت أثناء سير العمل قد أجابت نفسها بنفسها قبل النهاية ، فإن الشكوك التي مازالت باقية قد اشير اليها بالطبع •